(فصل فيما يحتاج اليه الكاتب من صنعة
الكلام وكيفية انشائه وفيه طرفان)

الطرف الاول

فى اصول يجب على الكاتب ان يعرفها قبل الخوض فى صنعة الكلام

الاصل الاول

(فى النظر فى المعانى والالفاظ وأحكامها)

فاما المعانى فهى سر الكلام وخلاصة المقصود منه . فقد قال فى الصناعتين : المعانى من الالفاظ بمنزلة الابدان من الثياب. بل المعانى هى ارواح الالفاظ وغايتها التى لاجلها وضعت وعليها بنيت . فالالفاظ تابعة والمعانى متبوعة . واحتياج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى اشد من احتياجه الى تحسين الالفاظ . لانه اذا كان المعنى صوابا واللفظ منحطا ساقطا عن أسلوب الفصاحة كان الكلام كالانسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه . واذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الانسان الميت الذى

لا روح فيه ولو كان على احسن الصور واجملها . وقد قسم ابو هلال العسكرى المعانى الى خمسة أقسام

(القسم الاول منها) ان يكون المعنى مستقيما حسنا كقولك رأيت زيدا . قال وهو أعلى الانواع الخمسة واشرفها. فمن المعنى المستقيم الحسن من الشعر فى الوعظ قول النمر بن تولب يذم طول الحياة

يكاد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويحمل

وفى وصف الايام قول أبى تمام

على انها الايام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وفى المدح قول الآخر

هم الأولى وهبوا للمجد انفسهم فما يبالون ماناالوا اذا حمدوا

وفى الفخر قول الآخر

ولست بنظار الى جانب الغنى اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وفى الغزل قول النظام

توهمه طرفى فآلم خده فصار مكان الوهم من نظرى أثر

وصافحه قلبى فآلم كفه فمن صفح قلبى فى انامله حفر

ومر بفكرى خاطرا فجرحته ولم ار خاطرا قط تجرحه الفكر

وفى النسيب قول القائل

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

ومن المعنى المستقيم الحسن فى النثر قول القاضى الفاضل: وانتم يابني ايوب لو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه اداهم، وقلدتم أيامه صوارم، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهبات دنانير ودراهم، وأيامكم: اعراس ومآتم، فيها على الاموال مآثم، والجود فى ايديكم خاتم. ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم... الى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى

(القسم الثانى من المعانى) ان يكون المعنى مستقيما قبيحا كقولك: قد زيدا رأيت. قال فى الصناعتين وإنما قبح لانك افسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير. وهذا النوع يسميه علماء المعانى «التعقيد» وسماه ابن الاثير «المعاظلة المعنوية» وهو تقديم ما الاولى به التأخير كتقديم الصفة او مايتعلق بها على الموصوف. وهو ضد الفصاحة لانها هى الظهور والبيان. ومنه قول الفرزدق يمدح خال هشام بن عبد الملك. الى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

يريد: الى ملك ابوه ماأمه من محارب. والمعنى ماأم أبيه من محارب. يمدحه بذلك ذما لمحارب

(القسم الثالث من المعانى) ان يكون المعنى مستقيما ولكنه كذب. كقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر. وما اشبه ذلك. ولتعلم ان اكثر المعانى المستعملة فى الشعر والكتابة على هذا الأسلوب لاسيما المعانى الشعريه فانها مقدمات تخييلية تؤثر فى النفس انقباضا وانبساطا على ماهو مقرر في علم المنطق

(القسم الرابع) ان يكون المعني مما لم يمكن كونه ألبتة كقولك: آتيك امس وأتيتك غدا. وما أشبه ذلك. قال فى الصناعتين وهو قليل الوقوع فِي الشعر كقول عبدالرحمن ابن عبدالله القس

وإنى اذا ما لموت حل بنفسها يزال بنفسى قبل ذاك فأقبر

قال فى الصناعتين فهذا من المحال الذى لا وجه له: وهو شبيه بقول القائل: اذا دخل زيد الدار دخل عمرو قبله: مني ان كلا منهما متوقف على الآخر فيلزم الدور. قال. فانْ يانصل الكذب بمحال صار كذبا محالا كقولك: رأيت قاعد

قائماً . ومررت بيقظان نائم . فانه كذب للاخبار بغير الواقع ومحال لعدم امكان الجمع بين النقيضين

(القسم الخامس) أن يكون المعنى غلطا . وهو أن تريد الكلام بشئ فيسبق لسانك الى خلافه كقولك : ضربني زيد . وأنت تريد: ضربت زيدا . قال فى الصناعتين وهذا اكثر وقوعا فى الكلام من الذى قبله . وقد وقع فيه الفحول من الشعراء كقول المرار

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر فى دعجاء بادٍ دجونها

فشبه الخال بالبدر . والمعروف ان الخال اسود وقول ذى الرمة

اذا انجابت الظلماء أصحت رءوسها

عليهن من جهد الكري وهى ضلع

فوصف الرءوس بالضلع وهو العوج ... الى غير ذلك من الغلط الذى لا تكاد تحصر أنواعه

وأما الالفاظ فقد تقدم فى الكلام على المعاني أن الالفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الابدان ولا خفاء فى ان الوجه الصبيح يزداد حسنا بالحلل الفاخرة والملابس البهية والقبيح

يزول عنه بذلك بعض القبح . كما ان الحسن ينقص حسنه برثاثة ثيابه وعدم بهجة ملبوسه والقبيح يزداد قبحا الى قبحه بمثل ذلك . قال فى الصناعتين : ومن الدليل على ان مدار البلاغة تحسين اللفظ ان الخطب الرائعة والاشعار الرائقة ماعملت لافهام المعانى فقط لان الردى من الالفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام؛ وانما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته . ورونق الفاظه . وجودة مقاطعه . وبديع مباديه . وغريب مبانيه علي فضل قائله وفهم منشيه : واكثر هذه الاوصاف يرجع الي الالفاظ دون المعانى . وتوخى صواب المعانى احسن من توخى هذه الامور فى الالفاظ : فلهذا يتأنق الكاتب فى الرسالة والخطيب فى الخطبة والشاعر فى القصيدة ويبالغون فى تجويدها . ويغلون فى ترتيبها . ليدلوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم : ولو كان الامر فى المعاني لطرحوا اكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا . واسقطوا عن انفسهم تعبا طويلا .

وايضا فان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا سلسا سهلا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر . الا ترى الي قول الشاعر

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

ليس تحته كثير معنى . ومع ذلك فهو رائق معجب بخلاف ما اذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا فانه يكون مستهجنا مرفوضا كقول أبي العتاهية يرثي ابا عثمان سعيد ابن وهب

مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
ياابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان اوجعت قلبي

فانه منحط الى الغاية

الاصل الثاني

﴿ الفصاحة في اللفظ المفرد ﴾

مما يجب معرفته قبل الخوض في صنعة الكلام: الفصاحة والبلاغة . فأما الفصاحة فهي في أصل اللغة « الخلوص » . يقال أفصح اللبن اذا تجلت عنه رغوته فظهر وأفصح الرجل عما في نفسه اذا أظهره . ويوصف بها المفرد . والكلام . والمتكلم . فيقال: لفظ فصيح . وكلام فصيح . ومتكلم فصيح . والفصاحة

فى المفرد اعتبر فيها المحققون من علماء المعاني اربع صفات

(الصفة الأولى)

سلامة اللفظ من تنافر الحروف وهو ما يثقل النطق به ويعيب وجعله في الايضاح على مرتبتين

(المرتبة الأولى) مايخف الثقل فيه بعض الخفة كلفظ « مستشزرات » فى قول الشاعر

غدائره مستشزرات الى العلى تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فالغدائر : الذوائب . والمستشزرات بفتح الزاى بمعنى « مرفوعات » وبكسرها بمعنى « مرتفعات » . والمدارى : أسنان المشط. والمثنى والمرسل صفتان للشعر . وانما وقع الثقل فى « مستشزرات » لتوسط الشين وهى مهموسة رخوة بين التاء وهى مهموسة شديدة والزاى وهى مجهورة

« المرتبة الثانية » ماتكون الكلمة فيه متناهية فى الثقل وعسر النطق بها كما يحكى ان اعرابياً سئل عن ناقة فقال : تركتها ترعى « الهعخع » بضم الخاء المعجمة والهاء : ثم قيل انه نبت . وقيل : شجر . قيل : هي كلمة معاياة لا أصل لها فى اللغة

(الصفة الثانية)

من صفات اللفظ الفصيح سلامته من الغرابة عند اهل اللسن من العرب كقريش وغيرهم وهو لقلة استعماله عندهم ليس بفصيح بخلاف ما كان غير غريب عندهم ثم صار غريبا بالنسبة لمن بعدهم فانه فصيح والا لزم ان يكون جميع مافي كتب غريب القرآن والحديث غير فصيح وهو ممتنع كما أشار اليه السبكى فى شرح التلخيص . واعلم ان صاحب المثل السائر قد جعل الالفاظ على أصناف

(الاول) المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم فى كل زمان . وهو ما تداول استعماله الأول والأخر وهلم جرا الى زماننا كالسماء والارض والليل والنهار والحر والبرد وما أشبه ذلك . فان أحسن الكلام ماعرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه . قال : وقد كانت العرب فى الزمن القديم تتحاشى اللفظ الغريب فى نظمها ونثرها وتميل الى السهل وتستعذبه وانظر الى قول امرئ القيس وهو أفحل شعراء الجاهلية كيف يقول

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة
كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

تجده فى غاية السهولة والوضوح . وأمثال ذلك في كلامهم كثير

(الثانى) الغريب المتوحش عند كل قوم فى كل زمن وهو مالم يكن متداول الاستعمال فى الزمن الاول ولا مابعده بل كان مرفوضاً عند العرب فمن بعدهم : ويسمى (الوحشى) نسبة الى الوحش لنفاره ، وربما قيل فيه « الغليظ . والعكر . والمتوعر » وهو مامجه سمعك ونبا عنه لسانك وثقل عليك النطق به . ومثل له بلفظ « جحيش » من قول تأبط شرا

يظل بموماة ويمسى بغيرها
«١» جحيشا ويعروري ظهور المسالك

ولفظ « اطلخم » فى قول أبى تمام

(١) جحيش بمعنى فريد ،

قد قلت لما اطلخم(١) الامر وانبعثت عشواء تالية عبسا دهاريسا

(الثالث) المتوحش فى زمن دون زمن . وهو ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب ثم رفض وترك بعد ذلك كقول بعض الأعراب في وصف ابل : كوم . بهارز ، مكد خناجر . عظام الحناجر . سباط المشافر ... فى كلام آخر يريد بالكوم جمع « كوماء » وهى الناقة العظيمة . والمكد جمع « مكود » وهى الناقة الغزيرة اللبن . والخناجر جمع خنجور وهى الغزيرة اللبن أيضاً . والعظام الحناجر الغلاظ الأعناق . وسباط مسترسلات . والمشافر جمع مشفر وهو من الناقة كالجحفلة من الفرس . ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . قال فى المثل السائر : وهذا ومثله لا يعاب استعماله على العرب لانه لم يكن عندهم غريباً ولا لديهم وحشيا .

(الرابع) المتوحش عند قوم دون قوم ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة لاهل الحضر . فان اهل الحضر يألفون السهل من الكلام ويستعملون الالفاظ الرقيقة ولا يستعملون الغريب الا في النادر . واهل البادية يألفون اللفظ

(١) اطلخم بمعنى اشتد

الجزل ويميلون الى استعمال الغريب المتوحش .

﴿ الصفة الثالثة ﴾

من صفات اللفظ الفصيح سلامته من مخالفة القياس نحو قول أبي النجم : الحمدلله العلى الاجلل . والقياس التصريفي ان يقال : الأجل

﴿ الصفة الرابعة ﴾

من صفات اللفظ الفصيح سلامته من الابتذال . وهو الامتهان بان لا يكون عامياً ولا ساقطا سوقيا . والمبتذل ضربان

(الضرب الاول) — مالم يتغير عن وضعه اللغوى الا ان العامة اختصت باستعماله فابتذل لاجل ذلك وسخف لفظه وانحطت رتبته وصار من استعمله من الخاصة ملوماً على الاتيان به لمشاركة العامة فيه وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء كقول الفرزدق

وأصبح مبيض الضريب كأنه
على سروات النبت قطن مندّف

فقوله « مندف » من الالفاظ العامية المبتذلة . ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى

(الضرب الثاني) ما كان في أصل اللغة دالا على معنى فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر. وهو اما غير مستقبح في الذكر أو مستقبح فاما غير المستقبح فكتسميتهم الانسان اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة و للباس أو ما في معنى ذلك « ظريفا » والظرف في أصل اللغة يختص بنطق الانسان فقط . فغيرته العامة عن بابه ونقلته الى اعم من موضوعه . وقد وقع الذهول في ذلك لابي نواس في قوله

وقال هذاك وجهه لي للظرف والحسن والكمال

فوصف الوجه بالظرف وهو من صفات النطق كما تقدم

واما المستقبح فكما في لفظ « الصرم » بالصاد المضمومه فانه في أصل اللغة القطع . يقال : صرمه . يصرمه . صرما بالفتح والضم اذا قطعه وبالسين المحل المخصوص فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا واستعملوه بمعني السرم الذي هو المحل المخصوص فصار لفظا مستقبحا وسماعه مستكرها حتى عيب على ابى الطيب في قوله

اذاق النوائى حسنه ما اذاقني وعف فجازاهن عني بالصرم

على ان العرب كانت تستعمله في أشعارها بالصاد فلا

يعاب عليها لان الالفاظ في زمنهم كانت باقية على اوضاعها .

ومن استعمله منهم أبو صخر الهذلي في قوله

فقد كان صرم في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

﴿ الفصاحة في الكلام والمتكلم ﴾

والفصاحة في الكلام اعتبروا فيها ثلاث صفات :

(الصفة الاولى) سلامته من ضعف التأليف نحو ضرب غلامه زيد . فان فيه عود الضمير على المتأخر لفظا ورتبة والجمهور على منعه وان جوزه ابن جني وابن مالك وغيرهما مستدلين بقول الشاعر

جزى ربه عني عدي بن حاتم
جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ولما كان الجمهور قد ذهبوا الى امتناعه فلا أقل ان يكون ضعيفا

(الصفة الثانية) — سلامته من تنافر الكلمات كقول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قال الخفاجي : وثقل هذا البيت لتقارب الحروف

المماثلة وتكررها أيضا

وجعل في الايضاح التنافر منقسما الى : أعلى وهو ما تقدم . وادنى كلفظ « امدحه » من قول أبي تمام

كريم متى أمدحه أمدحه والورى
معى واذا ما لمته لمته وحدى

وعلله بأن فى قوله « امدحه » ثقلا لما بين الحاء والهاء من التنافر لتقاربهما

(الصفة الثالثة) — سلامته من التعقيد . وهو ان لا يكون ظاهر الدلالة على المراد خال . وهو على ضربين

الضرب الاول — وهو الذي يسميه ابن الاثير « المماظلة المعنوية » ان لا يكون ترتيب الالفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير او اضمار أو غير ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد وان كان ثابتا في الكلام جارياً على القوانين بحيث يخيل على السامع نظم الكلام فلا يدري كيف يصل الى معناه كقول الفرزدق يمدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك

وما مثله في الناس الا مملكا ابو أمه حيّ أبوه يقاربه

يريد وما مثل هذا الممدوح في الناس حي يقاربه الا مملكا . أبو أم ذلك المملك أبو الممدوح . والمعنى انه لا يماثل أحد هذا الممدوح الذي هو ابراهيم بن هشام الا ابن أخته هشام ففصل بين « أبو أمه » وهو مبتدأ و « أبوه » وهو خبر بـ « حي » الاجنبي وفصل بين المبتدا وخبره وهما « مثله . وحي » بقوله « في الناس الا مملكا ابو أمه » وفصل بين « حي » وهو موصوف يقاربه بـ « أبوه » وهو أجنبي . وقدم المستثني على المستثني منه فضعف وتعقد . والخالي من من التعقيد . لا يكون فيه ما يخالف الاصل من تقديم أو تأخير أو اضمار أو غير ذلك الا بقرينة ظاهرة لفظا أو معنى مع نكتة

(الضرب الثاني) ان لا يكون ظاهر الدلالة على المراد لخلل في انتقال الذهن من المعنى الاول المفهوم بحسب اللغة الى الثاني المقصود كقول العباس بن الاحنف

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

يريد أن من عادة الدهر معاكسة المقاصد : فاراد بعد الدار ليحصل القرب وتسكب عيناه الدموع فتجمد بحصول

السرور بالملاقاة فكنى بسكب الدموع عن الكآبة والحزن وهو الظاهر من المعنى لانه كثيراً ما يجعل دليلا عليه فيقال. أبكاني الدهر وكنى بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقي من الفرح فان المتبادر الى الذهن من جمود العين بخلها بالدموع عند ارادة البكاء حال الحزن بخلاف ما أراده الشاعر من التعبير به عن الفرح وان كانت حالة جمود العين مشتركة بين بخل العين بالدموع عند ارادة البكاء وبين زمن السرور الذى لم يطلب فيه بكاء

والفصاحة في التكلم . قال في التلخيص . هى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح وهو يشمل اللفظ المركب والمفرد وأما البلاغة فقال في الصناعتين . وهي مأخوذة من قولهم بلغت الغاية اذا انتهيت اليها و بلغتها غيرك والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته فسميت البلاغة بلاغة لانها تنهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه وهي مما يوصف به الكلام والمتكلم فأما البلاغة في الكلام فقد اختلفت عباراتهم فيها اختلافا كثيراً يأتي على نيف وثلاثين بلاغة ترجع الى معنى توصف لها . وقد عرفها صاحب التلخيص بأنها مطابقة الكلام

لمقتضى الحال مع فصاحته : وعرفوها في حسن التوسل بأن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع رعاية الحال بلا اخلال واطالة في غير املال . وهذان التعريفان مما لا خفاء فيه . ثم لها طرفان : أعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه . وأسفل وهو ما لم عبر عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء باصوات البهائم وقد ظهر لك بذلك أن كل بليغ من كلام او متكلم فصيح ولا عكس

الاصل الثالث

﴿مما يجب معرفته قبل الخوض في صنعة الكلام معرفة الايجاز والاطناب والمساواة ومواقعها﴾

(الايجاز) — فأما الايجاز فهو في اللغة تقصير الكلام: يقال أوجزت الكلام اذا قصرته وفي الاصطلاح جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة وعليه وردت أكثر آي القرآن الكريم كما في مفتتح سورة الفاتحة وهو قوله تعالى «الحمد لله رب العالمين» فانه انتظم فيه خلق السموات والارض وسائر المخلوقات لم يشذ عنه شيء في أوجز لفظ وأقربه وأسهله

الى غير ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى وكذلك وقع في مثل هذا المعنى من كلام النبوة قوله عليه الصلاة والسلام «حبك الشئ يعمي ويصم» وهكذا (الاطناب) واما الاطناب فهو في اللغة المبالغة . فيقال : أطنب في الكلام اذا بالغ فيه. وفي الاصطلاح الاشباع في القول وترديد الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في القرآن الكريم مثل قوله « فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً » وقوله «كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» كرر اللفظ في الموضعين تأكيداً للامر واعلاماً انه كذلك لا محالة. وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر : أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس : فكرر أتاك مرتين . واحبس مرتين تأكيداً للامر . وكما في قول الآخر : كم نعمة كانت لكم كم كم وكم . فكرر « كم » أربع مرات في سبع كلمات . . الى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الاحاطة

(المساواه) — واما المساواة فهي ان تكون الالفاظ بازاء المعاني في القلة والكثرة لا يزيد بعضها عن بعض . وقد

مثل له للعسكرى فى الصناعتين بقوله تعالى « حور مقصورات فى الخيام » وقوله « ودوا لو تدهن فيدهنون » وقول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تزال أمتى بخير مالم تر الامانة مغنما والزكاة مغرما » وقول بعض الكتاب : سألت عن خبرى وانا فى عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك ، وقول الشاعر

اهابك اجلالا وما بك قدرة علىَّ ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس إنك عندها قليل ولا إن قل منك نصيبها

اذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء فى اى الثلاثة أبلغ واولى بالكلام واوردوا كلاما مطولا يعلم من المطولات. قال فى مواد البيان : والذى يوجبه النظر الصحيح ان الايجاز والاطناب والمساواة صفات موجودة فى الكلام ولكل منها موضع لا يخلفه فيه رديفه اذا وضع فيه انتظم فى سلك البلاغة ودل على عقل الواضع ، واذا وضع فيه غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة : فاما الكلام الموجز فانه يصلح لمخاطبة الملوك وذوى الاخطار العالية والشؤن السنية ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة الى مطالعة غيره ،

واما الاطناب فانه يصلح للمكاتبات الصادرة فى الفتوحات ونحوها مما يقرأ فى المحافل والعهود السلطانية ومخاطبة من لا يصل المعني الى فهمه بادنى إشارة : واما مساواة اللفظ المعنى فانه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظراء والطبقة الوسطى من الرؤساء فكما ان هذه المرتبة متوسطة بين طرفى الايجاز والاطناب كذلك يجب أن تختص بها الطبقة الوسطى من الناس :

الاصل الرابع

﴿ مما يجب معرفته قبل الخوض فى صناعة الكلام معرفة الاختراع والاتباع وتراقبهما ﴾

(الاختراع) — فاما الاختراع فهو الابتداع والاتيان بما لم يسبق اليه المخترع . قال الوزير ضياء الدين بن الاثير . وطريقه ان لا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شئ منها . بل يصرف همته الى حفظ القرآن الكريم وكثير من الاخبار النبوية والاشعار ويستنبط منها المقاصد التي يريد كتابتها فيقود ويقعد ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدى حتى يستقيم له طريق يفتحه لنفسه . قال : واخلق بتلك الطريقة

أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لاحد من المتقدمين فيها. وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما فى الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفه وابن مالك وغيرهم من الائمة المجتهدين فى علم الفقه . الا انها مستوعرة جداً لا يستطيعها الا من رزقه الله تعالى لساناً هجاماً وخاطراً رقاماً . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما استخرجه من القرآن والاخبار والاشعار بحيث أنه لا ينشئ كتابا الا من ذلك . بل اذا حفظ الاخبار والاشعار ثم نقب عن ذلك تنقب مطلع على معانيه مفتش عن دقائقه وقلبه ظهرا لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية على أنه لا بد للكاتب المرتقى الى درجة الاجتهاد فى الكتابة مع حفظ القرآن الكريم والاستكثار من حفظ الاخبار النبوية والاشعار المختارة من العلم بادوات الكتابة وآلات البيان من علم اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع وغير ذلك من الآلات ليتمكن من التصرف فى اقتباس المعاني واستخراجها والترقى الى درجة الاجتهاد . فالمجتهد

فى الكتابة يستخرج المعانى من مظانها من القرآن الكريم والاخبار النبوية والاشعار والامثال وغيرها بواسطة آلة الاجتهاد كما ان المجتهد فى الفقهيات يستخرج الاحكام من نصوص الكتاب والسنه بواسطة آلة الاجتهاد . قال . ولا يخفي أن هذه الرتبة لا يبلغها الا المبرز الكامل

(الاتباع) اما الاتباع فهو أن يتبع غيره فما يقدمه عليه. وسماه ابن الاثير التقليد . وهو على ضربين :

(الضرب الاول) — الاتباع فى الالفاظ — وهو اعتماد الكاتب على مارتبه غيره من الكتابة وأنشأه سواه من أهل الصناعة بان يعمد الى ماأنشأه أفاضل الكتاب ورتبه علماء الصناعة من نثر أو نظم فيأخذه برمته ويأتى عليه بصيغته فيكون ناسخا ناقلا لكلام غيره حاكيا له . ولمثل هذا توضع الدساتير ويدون الدواوين . على أنه ربما غير وحرف وبدل وصحف وأزال اللفظ عن وضعه واحال المعنى عن حكمه . وربما حمل احدهم الانفة والخوف من أن يقال : أخذ كلام فلان برمته . على أن يلتقط من كلام غيره من كل مكان سجعتين او سجعات فيرتب بعضها على بعض حتى يقوم بمقصوده

وينتهى الى مراده . فان كان لطيف الذوق حسن الاختيار رائق الترتيب فاختار من خلال السجع لطيفه وأحسن ترصيفه وتأليفه جاء بهجا رائقا الا أن فيه اخراج الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر . وتفريق مادوّن من كلام الافاضل . وتبديد شمله . وخروج الكلام عن أن يعرف قائله ويعلم منشئه فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه وينسج على منواله وان لم يكن لطيف الذوق ولا حسن الاختيار جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكا نائيا عن الذوق بعيدا عن الصنعة . وعاد من النسخ الى المسخ . واخرج الكلام عن موضوعه وأفسده فى وضعه وتركيبه . فان صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى ثم لا يكتفي بذلك حتى يتبجح معتقداً أن ذلك عين الانشاء وحقيقته محتجا فى ذلك بقول الحريرى ان صناعة الحساب موضوعة على التحقيق . وصناعة الانشاء مبنية على التلفيق . ظانا أن التلفيق هو ضم سجعات منتظمة وفقرات مؤلفة بعضها الى بعض ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة الى اختها وإضافة كلمة الى مشاكلتها وشتان ما بين التلفيقين وبعدا لما بين الطريقين

وللزنبور والبازي جميعا لدي الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين مايصطاد باز وما يصطاده الزنبور فرق

(الضرب الثاني) الاتباع فى المعاني دون الالفاظ . وهذا ما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر .. قال فى الصناعتين ليس لاحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم . والصب على قوالب من سبقهم . ولكن عليهم اذا أخذوها أن يكسوها الفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم . ويوردوها فى غير حليتها الاولى . ويزيدوا عليها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها . فاذا فعلوا ذلك فهم أولى بها ممن سبق اليها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعانى بينهم فليس على احد فيه عيب إلا اذا اخذه بكل لفظه . أو أفسده فى الأخذ وقصر فيه عمن تقدمه . ولا خفاء أن ابتكار المعاني والسبق اليه ليس فيه فضيلة ترجع الى المعنى ؛ وانما مرجع الفضيلة فيه الى الذى ابتكره وسبق اليه . فالمعنى الجيد جيد وان كان مسبوقا اليه . والوسط وسط والردئ ردئ وان لم يكن مسبوقاً اليهما . على أن بعض الادباء قد ذهب الى انه ليس لاحد من المتأخرين

معنى مبتدع . محتجا بأن قول الشعر قديم مذ نطق باللغة العربية وأنه لم يبق معنى من المعانى الا وقد طرق مراراً . قال فى المثل السائر : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة . ومن ذا الذي يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له الا ان من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر . لان الخواطر تأتى به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول كقولهم فى الغزل

عفت الديار وما عفت آثارهن من القلوب

وقولهم فى المديح : ان عطاءه كالبحر أو كالسحاب . وما أشبه ذلك من سائر المعاني التي تتوارد عليها الخواطر من غير كلفة ويستوي في ايرادها كل بارع . ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم (السرقة) من الاول . وانما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص . ولم تزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني من قبلهم ويبنون على بناء من تقدمهم كقول أبى تمام

خلقنا رجالا للتجلد والاسى وتلك النوائي للبكا والمآتم

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل أخوه مصعب وانما التسليم والسلو لحزماء الرجال . وان الجزع والهلع لربات

الحجال . وكقول المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذاعفة فلعلة لا يظلم

أخذه من قول ارسطاطاليس : الظلم كمين فى النفس يخفيه العجز وتبديه المقدرة .... الى غير ذلك من أنواع المعانى التي تحصر كثرة . ومما وقع للكتاب من ذلك ما كتب به ابراهيم بن العباس فى قوله فى فصل من كتاب له : « اذا كان للمحسن من الثواب مايقنعه . وللمسيء من العقاب مايقمعه . ازداد المحسن فى الاحسان رغبة . وانقاد المسيء للحق رهبة . أخذه من قول علي رضى الله عنه : « يجب على الوالي أن يتعهد أموره ويتفقد أعوانه حتي لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء ، ثم لا يترك واحداً منهما من غير جزاء فان ترك ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الامر وضاع العمل »

الاصل الخامس

﴿ من أصول صنعة الكلام وجود الطبع السليم وخلو الفكر عن المشوش وبيان ما يستحسن من الكلام ﴾

(اما وجود الطبع السليم) فقال فى مواد البيان : أول

معادن هذه الصناعة الجليلة القريحة الفاضلة والغريزة الكاملة التي هي مبدأ الكلام ومنشأ التمام والاساس الذي يبنى عليه والركن الذى يستند اليه . فان المرء قد يجتهد فى تحصيل الآداب ويتوفر على اقتناء العلوم واكتسابها وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما اكتسبه بخلاف المطبوع على ذلك فانه وان قصر فى اقتباس العلوم واكتساب المواد فقد يلحق بأواسط أهل الصناعة ، وذلك ان الطبع حظ يخص الله به المطبوع دون المتطبع والمناسب بغريزته دون المتصنع فلا سبيل الى اكتساب سهولة الطبع ولا كزازته بل هو موهبة تخص ولا تعم وتوجد فى الواحد وتفقد فى الآخر . ويحكى عن المبرد أنه قال : لا أحتاج الى وصف نفسى ، لان الناس يعلمون انه ليس أحد بين الخافقين يختلج فى نفسه مسألة مشكلة الا لقيني بها وأعدنى لها . فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علي مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل ، ولربما احتجت الى اعتذار من فلتة أو التماس فأجعل المعنى الذى أقصد نصب عينى ثم لا أجد سبيلا الى التعبير عنه يد ولا لسان ، ولقد بلغنى ان عبد

الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن اكتب اليه رقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الافصاح عما في ضميري فينحرف لساني الى غيره . ولذلك قيل ، زيادة المنطق على الادب خدعة وزيادة الادب على المنطق هجنة. فقد تبين ان العبرة بالطبع وأنه الاصل المرجوع اليه في ذلك

(وأما خلو الفكر عن المشوش) فانه يرجع الى أمرين

(الامر الاول) — صفاء الزمان . فقد قال أبو تمام في وصيته للبحتري مرشدا له للوقت المناسب لذلك : «تخير الاوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم . واعلم أن المادة في الاوقات اذا أراد الانسان تأليف شئ أو حفظه أن يختار وقت السحرة فان النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء وصفا الدماغ من كدر الابخرة والادخنة وسكنت الغمائم ورقت النسائم وتغنت الحمائم »

(الامر الثاني) — صفاء المكان الذي هو فيه بأن يكون خالياً من الاصوات عارياً عن المخوفات والمهولات والطوارق

وأن يكون مع ذلك مكاناً رائقاً معجباً رقيق الحواشي فسيح الارجاء بسيط الرحاب غير غمر ولا كدر ، فان انضم الى ذلك ما فيه بسط الخاطر من ماء وخضرة وأزهار وطيب رائحة كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر ان تصدى للعمل في النهار . على أن بعضهم قد ذهب الى أنه ينبغى خلو المكان من النقوش الغريبة والمرائى العجيبة فانها وان كانت مما يبسط الخاطر فان فيها شغلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتت

الاصل السادس

من أصول صنعة الكلام معرفة السجع وأحكامه واختلاف أحواله . وهو عمدة هذه الصناعة وأس بنائها . قال فى مواد البيان : هو مشتق من الساجع وهو المستقيم لاستقامته فى الكلام واستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة وهو ترجيعها الصوت على حد واحد . يقال منه : سجعت الحمامة تسجع سجعا فهي ساجعة . سمي السجع فى الكلام بذلك لان مقاطيع الفصول تأتى على ألفاظ متوازنة متعادلة وكلمات متوازية متماثلة فأشبه ذلك الترجيع . قال : وهو فى

الاصطلاح تقفية مقاطع الكلام من غير وزن وقال فى المثل السائر : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد . ويقال للجزء الواحد منه «سجعة» وتجمع على سجعات. وفقرة — بكسر الفاء — أخذا من فقرة الظهر وهى احدى عظام الصلب وتجمع على فقر وفقرات — بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها وربما فتحت الفاء والقاف جميعاً — ويقال لها أيضا قرينة لمقارنتها أختها . وتجمع على قرائن . ويقال للحرف الاخير منها « الفاصلة » و « حرف الروى » والقاعدة فيه ان تكون كلمات الاسجاع ساكنة الاعجاز موقوفاً عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدرج . لان الغرض منه المناسبة بين القرائن والمزاوجة بين الفقر وذلك لا يتم الا بالوقف بدليل قولهم : ما ابعد ما فات وما اقرب ما هو آت ، فانك لو ذهبت تصل فيه لم يكن بد من اعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الاعراب ، فتختلف اواخر القرائن ويفوت السجع غرضه

وليعلم ان السجع تارة تكون القرينتان فيه متفقتين فى حرف الروي ، ويسميه الرمانى « السجع الحالي » وعليه عمل أكثر الكتاب ، وأعلاه ان تكون ألفاظ القرينتين مستوية

الأوزان « ويسمى التصريع » وهو أحسن انواع السجع وأعلاها كما فى قوله تعالى « إن الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » وقوله عليه الصلاة والسلام : اللهم اقبل توبتى واغسل حوبتى ، ودون ذلك فى الرتبة ان يختص التوازن بالكلمتين الاخيرتين من الفقرتين فقط دون سائر الالفاظ كقوله تعالى « فيها سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة » ودونه أن يقع الاتفاق فى حرف الروى مع قطع النظر عن التوازن فى شيء من أجزاء الفقرة في الآخر ولا غيره . ويسمى المطرف كقوله تعالى « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » وتارة تختلف حروف الروى فى آخر الفقرتين وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرمانى يسميه « السجع العاطل » وعليه كان عمل السلف من الصحابة والتابعين ومن قارب زمانهم

وأعلاه ان يراعي الوزن في جميع كلمات الفقرتين أو فى أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزنا ، ويسمى التوازن كقوله « وآتيناهم الكتاب المستبين وهديناهم الصراط المستقيم » ودون ذلك فى المرتبة أن يراعى التوازن فى الكلمتين الاخيرتين

فقط ، ويسمى « التوازن » أيضاً كقوله تعالى « ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » وقولهم : اصبر على حر القتال. وشدة النضاع . ومداومة البراز. ودونه أن لا تقع موازنة فى آخر القرينتين ولا فى شيء من احداهما كقوله تعالى « والسماء ذات البروج واليوم الموعود »

ومما ينبغي معرفته ان أقل ما يكون السجع سجعتان . والازدواج قرينتان ، ولا نهاية لغايته وان زاد السجع على سجعتين فقد يقع على حد واحد وهو مستحسن وقد وقع فى القرآن الكريم بعض ذلك كقوله تعالى « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود » وقد تكون أولى السجعات أقصر ، والثانية والثالثة متساويتين وقد تكون الاولى والثانية متساويتين والثالثة زائدة عليهما اذا تقرر ذلك فمن السجع ما يستحسن ومنه ما يستقبح

(فحسنه) أن يكون بأمور : منها أن يكون بريئا من التكلف خاليا من التعسف محمولا على ما يأتى به الطبع وتبديه القريحة . ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى بان يقتصر من اللفظ على ما يحتاج اليه فى المعنى دون الاتيان بزيادة أو نقص تدعو

اليه ضرورة السجع حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى خرج السجع عن حيز الحسن الى حيز القبح . ومنها أن تكون الألفاظ حلوة حادة لاغثة ولا باردة مونقة المعنى حسنة التركيب غير قاصرة على صورة السجع الذى هو تواطؤ الفقر فيكون كمن نقش أثوابا من الكرسف او نظم عقدا من الخرز الملون . ومنها أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها . ومنها أن يقع التجنيس فى نفس الفواصل كقوله اذا قلت الأنصار . كلت الابصار . ونحو ذلك . ومنها أن يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا في سجع كقوله تعالى « ولو نشآء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »

(وقبحه) يعتبر بأمور : منها التجميع . وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامة ان كاتبا كتب فى جواب كتاب : وصل كتابك فوصل به مايستعبد الحر وان كان قديم العبودية . ويستغرق الشكر وان كان سابق فضلك لم يبق شيئاً منه . فان « العبودية »

بعيدة عن مشاكلة (منه) ومنها التطويل فيما ذكر قدامة وغيره . وهو أن يجيء الجزء الأول طويلا فيحتاج إلى إطالة الجزء الثاني بالضرورة كما حكى أن كاتبا كتب فى تعزية : اذا كان للمحزون في لقاء مثله كبير الراحة فى العاجل . وكان طويل الحزن راتبا إذا رجع الى الحقائق وغير زائل

قال في الصناعتين : وذلك انه لما أطال الجزء الأول وعلم أن الجزء الثاني ينبغى أن يكون مثله أو أطول احتاج الى تطويل الثانى فأتى باستكراه وتكلف: قال فى مواد البيان: والاطالة بقوله « غير زائل »

الطرف الثاني

﴿ في كيفية انشاء الكلام وتأليفه وتهذيبه : وبيان ما يستحسن منه وما يعاب ﴾

(أما انشاؤه وتأليفه) فقد قال ابن أبي الاصبع فى تحرير التحبير . يجب على كل من كان له ميل الى علم الشعر وإنشاء النثر أن يتمهد أولا نفسه ويمتحنها بالنظر في المعانى وتدقيق

الفكر فى استنباط المخترعات ، فاذا وجد لها فطرة سليمة وجبلة موزونة وذكاء وقادا وخاطراً سمحا وفكراً ثاقباً وفهما سريعا وبصيرة مبصرة وألمعية مهذبة وقوة حافظة وقدرة حاكية وهمة عالية ولهجة فصيحة وفطنة صحيحة أخذ حينئذ في العمل وان كان بعض ذلك غير لازم لرب الانشاء ولا يضطر اليه اكثر الشعراء ولكن اذا كملت هذه الصفات فى الكاتب والشاعر كان موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الاوصاف النفيسة .

قال في الصناعتين : اذا أردت أن تصنع كلاماً فأحضر معانيه ببالك . وتنوق له كرائم اللفظ فاجعلها على ذكر منك ليقرب عليك تناولها ولا يتعبك تطلبها ، واعمله ما دمت فى شباب نشاطك : فاذا غشيك الفتور وتخونك الملال فأمسك ؛ فان الكثير مع الملال قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء فتجد حاجتك من الري وتنال اربك من المنفعة فاذا اكثرت عليها نضب ماؤها فقل عنك غناؤها . وينبغى ان تخرج مع الكلام معارضة فاذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته أو معنى بديع تعلقت بذيله وتحرز أن يسبقك ، فانه ان سبقك تعبت فى تطلبه ولعلك لا

تلحقه على طول الطلب ومواصلة الدأب وهذا الشاعر يقول

اذا ضيعت أول كل شيء أبت أعجازه الى التواء

وقال ابن الاصبع وليراع الايجاز فى موضعه والاطناب فى موضعه بحسب مايقتضيه المقام ويتجنب الاسهاب والتطويل غير المفيد

(وأما بيان ما يستحسن من الكلام المصنوع ومايعاب منه) فقد قال في الصناعتين : ان الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه واصابة معناه وجودة مطالعه ولين معاطفه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبه أعجازه بهواديه وموافقة أواخره لمباديه مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاحتى لا يكون لها في الالفاظ أثر فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه وجودة مقطعه وحسن وصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه . فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من ضعف التأليف وبعده من سماجة التركيب صار بالقبول حقيقاً وبالتحفظ خليقاً . فاذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم تمجه النفس فان النفس تقبل اللطيف وتنبو

عن الكثيف وتقلق عن الجاسي البشع . وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى مايوافقه وتنفر عما يضاده ويخالفه . والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن الى المألوف ويصغى الى الصواب ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافى الغليظ ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والروية الفاسدة . قال : وأحسن الكلام ماتلاءم نسجه ولم يسخف . وحسن نظمه ولم يهجن . ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون خلقا بغيضاً . ولا السوقى من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا . ولا خير فى المعانى اذا استكرهت قهرا . والالفاظ اذا اجبرت قسرا . ولا خير فيما أجيد لفظه الا مع وضوح المغزى وظهور المقصد . ثم قال : وقد غلب على قوم الجهل فصاروا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه الا بكد . ويستفصحونه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسية غريبة . ويستحقرون الكلام اذا رأوه سلسا عذبا وسهلا حلوا ولم يعلموا ان السهل أمنع جانبا وأعز مطلبا وهو أحسن موقعا وأعذب مستمعاً . ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع . وقد وصف الفضل ابن سهل عمرو بن مسعدة فقال: وهو أبلغ الناس . ومن بلاغته

ان كل احد يظن انه يكتب مثل كتابته فاذا رامها تعذرت عليه

﴿ فى شرف العلم والعلماء ﴾

كفى بالعلم شرفا كونه ريحانة النفوس وبه تسمو الافكار وتبصر البصائر وتكشف الاسرار وتجلى السرائر وباتقانه تحسن الصفات وبكماله تكمل الذوات . إذ لا شرف لا وهو السبيل اليه . ولا خير الا وهو الدليل عليه . ولا منقبة (١) الا وهو ذروتها وسنامها . ولا مفخرة الا وبه صحتها وتمامها . ولا حسنة الا وهو مفتاحها . ولا محمدة الا ومنه يتقد مصباحها هو الوفى اذا خان كل صاحب . والثقة اذ لم يوثق بناصح . لولاه لما بان الانسان من سائر الحيوان الا بتخطيط صورته وهيأة جسمه وبنيته . لا ولا وجد الى اكتساب الفضل طريقاً . ولا وجد بشئ من المحاسن خليقاً . ذاك لأنا وان كنا لا نصل الى اكتساب فضيلة الا بالفعل . وكان لا يكون فعل الا بالقدرة . فانا لم نر فعلا زان فاعله وأوجب الفضل له. حتى يكون عن العلم صدوره . وحتى يتبين ميسمه (٢) عليه وأثره. ولم نر قدرة قط كسبت صاحبها مجداً . وأفادته حمداً . دون

(١) الطريق فى الجبل (٢) علامته

أن يكون العلم رائدها في تطلب . وقائدها حيث تؤم وتذهب ويكون المصرف لعنانه والمقلب لها في ميدانها . فهي اذن مفتقرة في أن تكون فضيلة اليه . وعيال(١) في استحقاق هذا الاسم عليه . واذا هي خلت من العلم أو أبت ان تمتثل أمره وتقتفي رسمه آلت ولا شيء أحشد (٢) للذم على صاحبها منها ولا شيء أشين من إعماله لها . واعلم ان العلم لا يجوز بمكنونه ولا يسمح بسره ومخزونه الا لمن رغب فيه لكرم عنصره وفضله لحقيقة جوهره . وانه لا يعطيك خالص الحكمة حتى تعطيه خالص المحبة . وخصلة ينبغي ان تعرفها وتقف عندها وهو ان تبتدئ من العلم بالمهم وتختار من صنوفه ما أنت ابسط به . والطبيعة به أعنى . فان القول على قدر النشاط والبلوغ فيه على قدر العناية ثم من أكبر أسبابه كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب في الخواطر . وللمطالب طرق . ولدرك الحقائق ابواب فمن اخطأها ونظر كان اسوأ حالا ممن لم يخطئها ولم ينظر

وقد وصف الله به نفسه ومنح به انبياءه وخص به اولياءه وجعله وسيلة الى معرفته وسبباً الى الحياة الابدية .

---

(١) عيال الرجل من يعوله (٢) أجمع

والنجاة من الشقاوة السرمدية . والفوز بالسعادة الاخرويه وجعل العلماء تلو ملائكته فى الاقرار بربوبيته والاختصاص بمعرفته وورثة الانبياء وجاء عن خير البشر (علماء أمتى كانبياء بني اسرائيل) وعن علي رضي الله عنه (العلم يكسب صاحبه الطاعة لربه فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته ومنفعة المال تزول بزواله وقال (اذا مات العالم انثلم بموته ثلمة (١) فى الاسلام) ومن كلام افلاطون (اطلب العلم تعظمك الخاصة واطلب الزهد يعظمك الجميع . والعلم كل احد يؤثره والجهل ضده وكل واحد يكرهه وينفر منه وكأن الانسان انسان بالقوة مالم يعلم ولا يجهل جهلا مركباً فاذا علم العلم صار انساناً بالفعل عارفاً بربه مستحقاً لجواره وقربه . واذا جهل جهلا مركباً صار حيواناً تاماً بل الحيوان خير منه قال تعالى (ام تحسب أن اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلا)

واعلم أنه تبين في علم الأخلاق أن الفضائل الأنسانية التى هى الامهات اربعة وهى العلم . والشجاعة . والعفة والعدل .

(١) الثلمة بضم الثاء وسكون اللام وفتح الميم فرجة المكسور

وما عدا هذه فهي فروع عنها ترد اليها . فالعلم فضيلة النفس الناطقة . والشجاعة فضيلة النفس الغضبية . والعفة فضيلة النفس الشهوانية . والعدل فضيلة التقسيط وهو عام فى الجميع ولا شك ان النفس الناطقة اشرف هذه . ففضيلتها أشرف . وتلك لا تتم ولا توجد كاملة الا بالعلم والعلم يتم ويوجد كاملا بدونها فهو مستغن عنها وهى مفتقرة اليه فتكون أشرف . وايضا ان هذه الفضائل الثلاث قد توجد لبعض الحيوانات العجماوات والعلم يختص بالانسان وتشاركه فيه الملائكة ومنفعة العلم باقية مدى الدهر كما جاء عن رسول الله (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او ولد بار او علم ينتفع به)

ومما يستأنس به هنا ما حكى عن عمر بن عبد العزيز لما ولي وفد عليه الوفود من كل بلد . فوفد عليه الحجازيون فتقدم منهم غلام للكلام . وكان حديث السن . فقال عمر . لينطق من هو أسن منك . فقال الغلام . اصلح الله امير المؤمنين . إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه . فاذا منح الله العبد لسانا لافظا . وقلبا حافظا فقد استحق الكلام . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا .

فتعجب عمر من كلامه وسأل عن سنه فاذا هو ابن إحدى عشرة سنة فتمثل عند ذلك بقول الشاعر

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير اذا التفت عليه المحافل

وقال ابن عبد ربه

العلم يحيي قلوب الميتين كما ... تحيا البلاد اذا ما مسها المطر
والعلم يجلو لعمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمر

وقال بعض الشعراء

من يعدم العلم يظلم عقله ابدا ... تراه أشبه ما تلقاه بالنعم
كم من نفوس غدت لله مخلصة ... بالعلم في صفحة القرطاس والقلم
والعقل شمس ونور العلم منبثق ... منها ومنها ثمار الفضل فافهم

وقال ابو محمد البطليوسي النحوي

أخو العلم حي خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يظن من الاحياء وهو عديم

وقال الشافعي

علمي معي حيثما يممت ينفعني ... قلبي وعاءله لا بطن صندوق

ان كنت في البيت كان العلم فيه معي

او كنت في السوق كان العلم في السوق

وقال بعض العارفين من أرباب البصائر ملحوظا صدوره من الحضرة العلية كنفوذ من قال

تعلم ما استطعت لقصد وجهي فان العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر اذا ما حل في غير الثقات
ومن طلب العلوم لغير وجهي بعيد أن تراه من الهداة

وأنشد الرشيد عن أبيه فقال

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي

فالناس ما بين معموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا نحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

واعلم ان العلوم مع اشتراكها في الشرف تتفاوت فيه فمنها ما هو بحسب الموضوع كالطب فان موضوعه بدن الانسان ولا خفاء بشرفه . ومنها ما هو بحسب الغاية كعلم الأخلاق فان غايته معرفة الفضائل الانسانية ونعمت الفضيلة . ومنها ما هو بحسب الحاجة اليه كالفقه فان الحاجة اليه ماسة . ومنها ما هو بحسب وثاقة الحجج كالعلوم الرياضية فانها برهانية

يقينه وهكذا

فالعلم هو الشيء النفيس يظهر صاحبه امام الناس فى مظهر العظمة والكمال وهم يرمقونه بعين الاحترام ويرقي صاحبه الى عرش المناصب العالية ويجعله مقربا لدى الأمراء والعظماء ولا ترى انه مامن أمة شاع ذكرها وارتقت الى اوج كمالها وبلوغ غايتها وانتشر صيتها وضحت عزيزة الجانب مرعية الزمام والجوار الا والسبب الرئيسي لذلك هو العلم

وهو الفاعل الاعظم لتثقيف العقل والمروض الاكبر لجماح الطباع والسبب الاهم لتشييد التمدن والعمار . اذ هو يرفع افكار الانسان الى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الاشياء ويرسم فى ذهنه صور الكائنات الدقيقه فلا يعود هاذيا بخزعبلات الامور . فتطفيء من قلبه توقدات الحسد بنظره الى زوال المحسودات ويطرد من صدره ضواغط الطمع بادراكه حقيقة المطموعات وبه تنمو الصفات الداعية الى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع . والدعة والاحسان والوفاء والامنية اذ يعود خبيراً بغوائل الاطوار الطالحة وعليما بنتائج الصفات الصالحة وبالجملة

فالشمس اذا بزغت لا تحتاج الى دليل والبصيرة اذا انطمست لم تستفد بمعالجة الحكيم العليل بل يقضي نحبه ثم هو بعد ذلك الى جدث حميل (١)

العقل

اعلم أن الله تعالى خلق الخلق على أربعة أنحاء ملائكة وآدميين وشياطين وبهائم فاما الملائكة فعقول بلا شهوات ولا هوى واما البهائم فشهوات بلا عقول واما الشياطين والجن فركب الله فيها العقول والشهوات والهوى وهكذا ركب فى بنى آدم العقل والهوى والشهوة

ولا مشاحة فى أن عمل الانسان فى الأدوار المتقدمة لم يكن يدويا محضا بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة لانه لا ينتظر الانسان ان يصنع عدة للصيد او آلة لفلح الارض او يبذر الحبوب الا بعد التفكير الذى هو المعين للانسان من الحيوان ولا يتصور أن يستوعب الصنائع الا بعد ان يعرف دقائقها من المعلومية لم العلوم المرتبطة بها ثم هو لا يقدر على تعهد الأرض مالم يوجد هناك حاكم يمنع تعدى الغير عنه ومهندس يسهل

(١) فعيل بمعنى مفعول اى محمول

له الري ولم ينتفع بالآلات البخارية في الزراعة والصناعة لا بعد أن أجهد المخترعون (كجيمس واث) وغيره قرائحهم حتى وصلوا الى استخدام البخار فالأعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة وهي مقدمة عليها حتى في اختيار الصنائع

فالعقل هو غريزة يتهيأ بها الانسان الى فهم الخطاب ويطلق على الحجى واللب على هذا النمط قسمه الحكماء الى اربعة أقسام. الاول العقل الهيولاني أي الاستعداد المحض لادراك المعقولات وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما في الأطفال وإنما نسب الى الهيولى لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الاولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها

الثاني العقل بالملكة وهو العلم بالضروريات واستعداد النفس لاكتساب النظريات

الثالث العقل بالفعل او الغريزي وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد

الرابع العقل المكتسب اى نتيجة العقل الغريزي وهو

ثقابة المعرفة وإصابة الفكر وتحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لاتغيب عنه وليس له حد ينتهي اليه لانه ينمو اذا استعمل وينقص اذا أهمل فهو حفظك الله أطول رقدة من العين وأحوج الى الشحذ من الشيب . وأفقر الى التعاهد وأسرع الى التغيير . وأدواؤه أقتل . وأطباؤه أقل . فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته ومن رامه بعد التفاقم يدرك شيئاً من حاجته . وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر وعلى قدر التفرغ يكون التنبه

وقد قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم . وغايته إصابة الوهم . وليس للذكاء غاية ولا لجود القريحة نهاية وقالوا أيضاً التجربة مرآة العقل . والغرة ثمرة الجهل . ولذلك حمدت آراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار . وينابيع الانوار لايطيش لهم سهم . ولا يسقط لهم وهم فعليكم بآراء الشيوخ فانهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الايام حنكة وتجربة فقد قال الشاعر

وقال آخر

الم تر أن العقل زين لاهله ولكن تمام العقل طول التجارب

إذا طال عمر المرء في غير آفة أفادت له الايام في كرها عقلا

وقال آخر

يعد رفيع القوم من كان عاقلا وإن لم يكن في قومه بحسيب

إذا حل أرضا عاش فيها بعقله وما عاقل في بلدة بغريب

واعلم أن الزيادة في العقل المكتسب زيادة علم بالامور وحسن إصابة بالظنون . ومعرفة مالم يكن قد كان . واذا تناهى وزاد في الانسان فقال معظم العقلاء يكون فضيلة لأنه إذا كان مجموع آحاد والآحاد فضائل . ولا شك ان كثرة الفضائل فضيلة . وأما الشيء المحدود تكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالفجور في الشجاعة . والتبذير في الكرم . ومتى كان عقل العاقل في ارشاد ورأيه في امداد يكون قوله سديداً . وفعله حميداً . ويبلغ به كماله . ويقوى ذهنه وحافظته وحسه وذوقه وخياله . ويعظم به غناه . وبه يتوصل الى مناه

فعلى العاقل في هذا الكون أن يتخذ خدينه . ويستجيد قرينه . على أن السليم من العيوب عند الامتحان معدوم ولم يزل في جدة الزمان فكيف به اليوم مع تصرف الدهور وتغير الامور ولقد قال بعض الحكماء قولا جعله عدلا فصلا

أصاب به نص الحق ونطق بحكم الصدق « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم »

وقد قال سعد بن حميد في هذا المعنى وأجاد

وما أنت إلا كالزمان تلونت نوائب من حدثانه وأمور
وإن قل إنصاف الزمان وعدله فمن ذا على حكم الزمان يجير

وعليه أن ينقد الحوادث . ويراقب حركات الناس وسكناتهم ويبحث في الاسباب والمسببات لانه بذلك يدرك أسرار نظام الكون ويجمع في ذهنه معلومات كثيرة لابد منها لكل من يريد أن يسير في هذه الحياة سيراً نافعا ولبنى جنسه وبنى وطنه . ومن اعتاد على مراقبة سير الحوادث ودرسها والبحث في طبائع الناس وأطوارهم وأخلاقهم وعوائدهم وفي الكائنات وشرائعها وقواعدها . وكان ممن وهبهم الله ذكاء فطريا . واستعداداً كبيراً للترقي والتقدم بلغ من العلوم مكانا رفيعا وأجله الناس اجلالا عظيما . ووضعوه على عروش الحكماء تلك العروش التي يحثو أمامها كل طالب للعلم . ويحب للعرفان عن رضى واختيار لا عن خوف ورهبة . ومن هؤلاء الحكماء الذين طبقت شهرتهم آفاق الاعصر القديمة . ولا

تزال أقوالهم تسمى حكما . وأمثلتهم قواعد وروابط . فيلسوف اليونان الشهير وحكيمهم الكبير (ارسطاطاليس) هذا الرجل الهمام والعلم المقدام درس طبائع البشر درساً عميقاً ثم دون اختباره في إحدى مؤلفاته الشهيرة

(الادب والفضيلة)

لايخفى على كل انسان باحث أن الادب والفضيلة أحسن مبحث يتعب فيه الفضلاء المندرجون في سلك الهيئة الاجتماعية وقد ذهب الناس في هذا الموضوع الجليل مذاهب شتى واختلفوا في تسميته فمنهم من دعاه بعلم الاخلاق ومنهم من سماه علم التهذيب وهكذا وعلى كل المآل يرجع الى واحد وان كان القصد من تسميته متفاوتا . فالفريق الذى عرّفه بعلم الاخلاق ذهب الى ان الاخلاق انما هي عبارة عن تخلق المرء بالادب أو بضده . فان كان الاول فهو فضيلة . وان كان الثاني فهو رذيلة . ولكنهم يسمونه بعلم الاخلاق من باب الاطلاق أو من باب تسمية الكل باسم البعض . والذي سماه علم التهذيب فقد عنى به تدريب الانسان على الفضيلة واجتنابه للرذيلة ليكون سببا في اظهار الفضيلة

ثم ان الاخلاق تنقسم الى قسمين طبيعية وأدبيـة . فالطبيعية هى التي تسمى بالملكات . والادبية هي التي تدعى بالعادات والمألوفات . وجميعها يرجع الى أصل واحد وهو التطبع وهو الجدير بالتعويل عليه . فلذلك نقول ان الانسان حينما يوجد على سطح الارض يكون خاليا من جميع الصفات المشتركة في العالم جيدة كانت أو رديئة ولا يوجد فيه سوى الاستعداد للتطبع . فاذا كان ميله و ستعداده اخلاقي جيداً مال بطبعه الى قبول الجيد . واذا كان رديئاً مال الى الرديء فلا يوجد هناك مايؤهله ويجعله مستحقا لتحسين أخلاقه وآدابه الشخصية أحرى من اخضاع استعداده الانساني منذ نعومة أظفاره الى التطبع بالطبائع والصفات الحسنة أو التخلق بالاخلاق الجيدة . على انه في هذه الآونة من الحياة تكون الطبيعة الفطرية أشـد خضوعا لقبول التأثيرات والانفعالات فلذلك كانت كل عادة وجدت في الطفولية ولم تستدرك طبعت أثرها على الفطرة وكانت ملكة عند الكبر لايمكن استئصالها الا بتعب شاق . وجهد جهيد . وهكذا كل خلق . ومتى حصل الانتقال الى رتبـة البلوغ فصاعدا

صار التطبع صعب المنال بعيد الحصول على الطبيعة ولا يرد للملكة سلطان عليها . بل تصير في هذه الحالة خاضعة لغلبة العادة التي لا يكون هناك صعوبة لازالتها . ولذا تتفاوت الافراد بالاخلاق المحمودة والمذمومة . هذا تراه مجبولا على الاخلاق الحسنة وذا متزي بالسيئة . هذا لعفته يستحق أن يكون مثالا للفضيلة وذاك لسفهه يجب أن يحقر من جميع الناس ليتقى شره . وهذا التباين لم يكن الا باختلاف أطوار معيشة كل فرد اذ أن الانسان يربى على نسق أخلاق مرشده . ان حسنة فحسنة . وان سيئة فسيئة . ولما كان الانسان ميالا بالطبع نحو الشر كان اتصافه بالاخلاق السيئة أشد منه بالاخلاق المحمودة . ولذلك ندر أن يوجد فرد ذو أخلاق هادئة ليست مصاحبة للشر . وحيث ان الانسان يتميز عن الحيوان باستعمال قواه العقلية الصحيحة في أخذه الحيطة وردع نفسه عن الشر وميلها الى الخير وجب عليه ان لا يسترسل مع طبعه البهيمي بلا تروٍ ولا امعان بدون أن يراجع ضميره عن الوقوع فى الزلل فمن كان كذلك كان جديرا أن لا يطلق عليه حد الانسان . اذ أن الانسان هو الحيوان الناطق والمراد

بالنطق ليس مجرد أصوات خاوية من المعاني التي يشترك فيها الحيوان والجماد . بل المراد به مطلق الادراك بديهيا كان أو كسبيا تصورا أو تصديقيا الذي يتمكن به من ادراك طرفي النسبة التصديقية في كل نظرية والحكم على أيهما أفضل

فمن استرسل مع طبعه بدون تروٍ صحيح . وفكر صائب وادراك النسبة الحكمية بين الموضوع والمحمول فهو بدون شك مشارك للحيوان . ولا عجب حينئذ على هذا الفرد الذى لا يصده في طريقه وازع من شرف النفس وطهارة الوجدان

فعلى كل أن ينقاد بفكره الوقاد وذهنه الجيد الي خير الخصال وأروقها ويمج بفضل تميزه كل خصلة رديئة . فيجتهد في تلاشيها وانعدامها وينبه النفس لان تعدل عن كل نقص وتبيح لتكون أبية فمن لا يحجز نفسه عن الرذائل مع يقينه بقبحها ولا يزجرها بالوعيد والترهيب كان كمن فقد رشده وغاب صوابه وخسر دنياه وآخرته فخير للكل أن يضرب بينه وبين هذا الفرد بسور متين اذ هو خبيث العنصر ردئ الجوهر

ثم اعلم ان أعظم مايفتخر به الرجل على معاصريه هو

الفضيلة التي يكون بها الانسان اهلا لان ينتظم في سلك أفراد المجتمع الانساني وهي حاسة طبيعية يشعر بها الشخص عند ما يخير بين أمرين . اضرار واحسان . وهي ظاهرة فيه كبيرا كان الشخص أو صغيرا شابا أو كهلا . ودليل وجودها فيه انك اذا استعرت شيئا من زيد مثلا ولم يطالع أحد عليكما فانك تجد أمرين يتجاذبانك . أحدهما وفاء ما اقترضته والآخر انكاره . فالأمر بالوفاء هو الفضيلة التي اختصت بالانسان دون غيره . والامر بالضد هو الرذيلة . والتربية والتهذيب أحكم أمر مظهر للفضيلة . فيجب على من يبلغون هذه الدرجة القصوى أن يغرسوها في عقول الصغار ليتعودوا على إلفها فيكون ذلك من اكبر الدواعي لنشرها بين أفراد المجتمع الانساني . والتهذيب قسمان . قسم غريزي في الانسان فيجده المرء بمطالعة التواريخ والسير . فيسير بحسب ما يألفه ويستحسنه منها . وينبذ وراءه ظهريا ما يستهجنه ويراه عقيما والقسم الثاني أثبت وأدق من الاول . فعلى كل انسان أن يطرق باب التعليم ويفتش في تواريخ من مضوا في العصور السالفة ويكتسب أدبا من آدابهم ولا يقتصر ويستقل بالتهذيب

الغريزي الذي وجد فيه

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارا الى عمره

فعلى الانسان أن يثابر على إدراك الكمال . ويواظب على ارتقاء سلم الآداب . ولا يرضى من الغنيمة بالاياب . ولا بد دون الشهد من إبر النحل . ولا يغيب عنه قول القائل

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العلى سهر الليالى

(السعادة في حسن الخلق)

كل انسان يجب أن يكون سعيداً في حياته الدنيا والآخرة ولكن كثيراً من الناس يجهلون أن السعادة لا تنال بالاماني والتشهي ولا بالبخت والمصادفة . وانما هي تابعة للاخلاق الفاضلة . والاعمال النافعة التي تنشأ عنها

الخلق : عبارة عن قوة مستكنة في النفس بها يقتدر الانسان على إبداء ما أراد عمله بلا روية واختيار فلو تأمل الانسان قليلا لوجد أن غالب ما يصدر عنه من الافعال ان لم نقل كلها ناشئ عن الاخلاق ان كان من حيث كونها حسنة أو كونها مذمومة فأمهات محاسن الاخلاق أربعة . الشجاعة . والحكمة . والعفة والعدل . ينشأ عنها بالاعتدال فيها محاسن الاخلاق وبالافراط

والتفريط تحصل الاخلاق المذمومة فالقوة الغضبية ان اعتدلت تسمى شجاعة ويصدر عنها النجدة والكرم والشهامة والثبات والوقار والتصون والود والوفاء والبشر وصدق اللهجة وسلامة النية وعظم الهمة وغير ذلك من الاخلاق المحمودة . وان مالت عن جادة الاعتدال من طرفين صدر عنها من طرف « التهور » وعنه يصدر الاعجاب والتكبر والحمق والغيظ . وعن الطرف الثاني تصدر الذلة والمهانة والجزع . وصغر النفس . والانقباض

الحكمة : هي حالة في النفس يدرك بها الصواب من الخطأ في كل الافعال الاختيارية . وهي اعتدال القوة العاقلة وبها يكون التدبير حسنا . والذهن جيدا . والرأي ثاقبا . والظن مصيبا في خفايا الامور . وعن الافراط في تلك القوة تحصل الكبائر . وتنساق النفس الى المكر والخداع والدهاء فان خرجت عن الافراط الى التفريط المحض . كان من ذلك الحمق . والجنون . ووقفت النفس في قلة التجربة في الأمور ولو مع سلامة التخيل والقوة الشهوانية اذا تأدبت بتأديب العقل والشرع تسمى العفة . ويصدر عنها السخاء . والقناعة

والصبر والمسامحة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وميلها الى الافراط والتفريط ينتج منه الحرص والشره . والوقاحة والتبذير والتقتير والرياء والحسد والشماتة والتذلل الاغنياء . وما في معنى ذلك

العدل : حالة في النفس وقوة تسوس القوة الغضبية والقوة الشهوانية فتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما عن الاسترسال والانقباض على حسب المقتضيات . ولكل من الشجاعة والحكمة والعفة طرفا زيادة ونقصان كما تقدم والوسط أفضل وليس للعدل طرفا زيادة ولا نقصان ولكن له مقابل وضد واحد وهو الجور

الوقار : أن يتمسك الانسان عن ثرثرة الكلام وكثرة الحركة وان لا يتكلم الا اذا سئل . واذا أجاب فليكن جوابه بهدو وسكينة وان يصيخ أذنيه سمعاً عند الاستفهام ويتمهل عند الجواب لئلا يورث الملل . وان لا يتعصب في شيء ويظهر غضباً . فالتعصب بالغضب شأن قصيري الحجة الذين لا يفقهون حجة خصمهم . وإن فقهوا لا طاقة لهم على الاجابة لعيهم وقصورهم . فيتخذوا التعنت والتعصب لهم سبيلا

وبئس ما يتخذون وقد قيل في هذا المعنى

استر العي ما استطعت بصمت | إن في الصمت راحة للصموت
واجعل الصمت ان عييت جوابا | رب قول جوابه في السكوت

التصون : هو التحرز والتحفظ من الاشياء الخسيسة الدنيئة التي تسلب الانسان نباهته وانفته فترمي به الى السفه والخرق والكذب والخبث والجبن وقصور الهمة ولله در من قال

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه | وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته | وأصبح في ليل من الشك مظلم

ويجب على المتصون أن يكون عزيز النفس . وشريفها مبتعداً عن المواقف الواهنة التي تخفض من قدره . منقبضا عن معاشرة ذوي الحب والخبث . وأن يصون لسانه من ذكر الخنا والفحشاء والتلفظ بخسيس الكلام وساقطه والانقباض عن التذلل والتواضع لذوي السفه والدهاء اذ يخالون التذلل لهم فرضا واجباً فيشمخون بخفة عقولهم خيلاء وكبرياء

لا تمدحن امرءاً من غير تجربة
فربما قام انسان مقام فئه

فالدال والذال في التصوير واحدة

والدال أربعة والذال سبع مئه

الود : هو خلقة يتصف بها الانسان ذو النبل والفضل والوفاء وقد حده زكريا بن عدي الكاتب في الاخلاق فقال الود هو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ولا يكون حميداً الا من أفاضل الناس ذوى الامانة والشهامة صادقي اللهجة حسنى الطوية لكون محبتهم طاهرة . وخالية من الشهوات الذاتية والخيانة والخبث . بخلاف ذوي الفسق الذين لا تخلو مودتهم ان تكون ملطخة بحمأة المفاسد بعيدة عن الشهامة والفضيلة

الوفاء : قد حده ابن عدي أيضا فقال : الوفاء هو الصبر على ما يبذله الانسان من نفسه . ويرهن به لسانه وعدم الخروج عما يتضمنه ولو كان مفرطا : وبه يصون المرء نفسه من الخطل . ويبتعد عن السفه والهذر والطيش والخفه . ومن يتصف بهذا الخلق . يكون ثقة في مقاله . ومقبولا بفعاله به تناط الآمال ويعتمد عليه عند عظائم الملمات وله يحق الاخلاص وامثله تجب المؤاخاة أما من لا يتصف بهذه الخلة الشريفة فالاجدر به ان تجتنب معاشرته الادباء

والفضلاء لكونه بعيدا عن الود وعبة حتى ان العرب لعظم اعتبارهم الوفاء وتنزيلهم إياه المنزلة الاولى ، كان البعض من أهل الشهامة والانفة عند ما يصعبون بخون يستحيلون وجود الخل الوفي وعلى ذلك قول بعضهم

لما رأيت بني الزمان وما بهم خلا وفيا للشدائد أصطفي
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

البشر : هو اظهار البشاشة والسرور والترحاب عند مقابلة الخلان والاصدقاء والاولياء والمعارف وهذا الخلق مستحسن عند الجميع لما يكون خاليا من الرياء والتظاهر بما ليس بواقع . فحذرا حذرا من شيمته الرياء فهو كحدث ظاهره مزخرف وداخله جيفة نتنة

أي شيء يكون اقبح مرأى من صديق يكون ذا وجهين
من ورائي يكون مثل عدوى وهو إن يلقني يقبل عيني

صدق اللهجة : هو الاخبار عن الشيء بما يطابق الواقع وهذا النوع من خير الاخلاق التي تدل على شهامة متصفيه وأمانة سريرتهم وضده الكذب وهو باب من الخداع والخيانة

سلامة النية : هي اعتقاد الخير في جميع الناس، ويجب أن

يستعمل هذا الخلق مع الاخوان والاصفياء والاصدقاء، عظم الهمة: هو أس العمران وعماد النجاح وأس الفلاح له ذلت المصاعب، به فاخرت أولاد الفقراء بجدهم واجتهادهم أولاد الملوك والعظماء. والخارجون من الاكواخ لحقيره باهوا ونافسوا الراضخين في صروح العظماء وقد حده ابن عدي بقوله: هو استصغار ما دون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية واستحقاق ما يجود به الانسان عند العطية والاستخفاف بأواسط الامور وطلب الغايات والتهاون بما يملكه ويبذله لما يسأله بغير امتنان ولا اعتداد به. ولو نظرنا الى المتخلقين بهذا الخلق الكريم لوجدناهم ارباب الامور ورجال الأعمال وأهل الشهامة والانفة الذين لسان حالهم يقول

هو المجد حتى تفخر العين أختها
وحتى يكون اليوم للامس سيدا

وقال آخر

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر

وأيضا قيل لمن لاهم لهم غير شهواتهم الوقتية

وأتعب خلق الله من كان همه

من العيش أن يحظى بعيش البهائم

فما الرجل الا البعيد مناط الهمة الذي لا يعتمد الا

على عظم همته

وانما رجل الدنيا ووحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

فعلى كل انسان أن يمرن عقله ويروض نفسه على التخلق بما شرف منها مبتعداً عن السيئة . وعليه ليحصل على الغاية المطلوبة أن يكثر من مطالعة الكتب الادبية ومعرفة ما تضرم من أخبار رجال الفضائل والآداب ويجهد ذاته بتدقيق الفكرة ومجاهدة النفس ليدرك التمون بين العادات الجميلة والقبيحة ليكون على بصيرة باتباع المحمود والمرضى منها . فمن لا يدأب مجتهدا في اقتناء الصفات الكريمة فيهذب نفسه مستكثراً من الفضائل يحلى الآداب . يخال البسير من الرزائل جسيما . والجسيم من أعماله دون همته والشريف من الصفات أقل صفاته كان من الأغبياء الضعيفي الهمة (الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) ان يكون عثرة في

سبيل الفضيلة

(الهيئة الاجتماعية)

لولا الهيئة الاجتماعية لما كان للآداب وجود ولا اعتبار لانه لو وجد كل انسان منفرداً عن أقرانه لما كانت أفعاله تعتبر جائزة أو غير جائزة محللة أو محرمة اذ اعتبار الحلال والحرام في أفعال الانسان انما يكون بالنظر الى بقية الناس الذين هو بينهم فلولا وجود الانسان فى هيئة اجتماعية أعنى بين أناس آخرين لكان مايعد فعله الآن سرقة أو تعديا أو ظلما أو رياء مثلا لايعد في شئ من ذلك . والحاسة الادبية التى بها نميز ونشعر بكون الافعال صوابا أو خطأ حلالا أو حراماً هي الضمير أو الذمة ووجودها فى الانسان نتج أصلا عند انتظامه في هيئة اجتماعية وهي الآن غريزية يولد الانسان مفطوراً عليها . فلما شرع الناس يحاضرون والى بعضهم يسافرون تشيدت بينهم المعاملات وتمكنت المبادلات فكثرت الحاجات الانسانية وتفاقمت الضروريات البدنية حتى التزم هذا الى ذاك . واحتاج ماهنا الى هناك . وما لبث أن انتظم نشار البشر وانضم البدو الى الحضر وهكذا قد

استحدث الانسان شرائع الانضمام وانشاء مواطن الالتئام فنهضت مطامع النفوس وحامت السعود

ولما كان الانسان ميال بطبعه الى المعاضدة والاتحاد اضطر الى لوازم الحياة الاجتماعية وبواعث السكنى الانتظامية فأفضت به الضرورة الى التمدن والالتقاب ولحم الطبيعة بالآداب ليحسن نظام الجماعة في سلك الاتصال . وتسهل سبل الافعال والاعمال . وتمتاز الاشخاص المجتمعة وتهذب الاطباع المندفعة وما زال الاجتماع آخذ في ازديده والنظام سالك في انعقاده والضرورة تجهد المجرى والعقل يجد بالمسرى حتى ساقه الى الاتحاد والتعاون لدفع الضر عنه وجلب الخير اليه ثم صار ذلك يتوالى من السلف الى الخلف حتى رسخ في الفطرة وصار طبعاً يرثه الاولاد عن آبائهم . وهل الميل الى الاتحاد والتعاون يحكم على البواعث والافعال بالنسبة اليه فان كانت البواعث التي تحمل الانسان على عمل أمر ما مطابقة لهذا الميل آيلة الى صونه وتقويته استحسنتها الهيئة الاجتماعية ومدحتها لانها مطابقة لصالحها ومنفعتها والا استهجنتها وذمتها لانها منافية لمصلحتها آيلة الى مضرتها فصار كل فعل من الافعال

الموافقة لصون الهيئة الاجتماعية وتأييد دعائمها يعد صوابا أو حلالا مأمورا به وكل فعل يجلب لها الضرر ويعود عليها بالانحلال والاضمحلال يعد خطأ أو حراماً منهياً عنه فالحكم على الافعال من حيث الصواب والخطأ والحلال والحرام هو بالنظر الى نفعها أو ضررها للهيئة الاجتماعية وبحسب ذلك سنت الشرائع والاحكام

فالضمير أو الذمة هو ثمرة ارتقاء الهيئة الاجتماعية وواضع الشرائع والسنن الادبية كلها . ومن طبع الانسان انه اذا أطاع اهواء نفسه وأمياله الدنيئة وجد بعدها سوء العاقبة وندم عليها واعتمد على مقاومتها واذا أطاع أمياله السامية وجد الغبطة والسعادة ورغب في معاودتها دائما لما فيها من الخير وكل ذلك يسهل فيه بالمزاولة والعادة ويرسخ ويثبت بالوراثة ومن البلية ان بعض أفراد البشر عودوا أنفسهم التسليم للاهواء والامال الدنيئة المرضية حتى ضعف فيهم الحس الادبي أي الضمير أو الذمة فافرطوا في فعل ما يجلب فعله الهلاك عليهم وعلى من حولهم حتى صارت الهيئة الاجتماعية تود أن تتقى من شوائبهم وتتطهر من أقذارهم فتولاهم الانتخاب الطبيعي

سنة الله في خلقه فاضمحلهم وجعل مصيرهم الى البوار والراجح أن كل امة لا تراعي العفاف والاستقامة والصدق والعدالة وسائر الفضائل تنقرض وتتلاشى بحكم الانتخاب الطبيعي انقراض أولئك الافراد ولهذا السبب ايضا يتغير حكم الشعب الواحد على بعض الافعال ولذلك تجد السنن والاحكام الادبية في تغير دائم من درجة الى اسمى منها وشواهدنا على ذلك كثيرة . منها ان المتمدنين كانوا من عهد قريب يتاجرون بالرقيق ، ويقتلون الاسرى ويعاقبون السحرة بالموت والآن يعدون هذه الافعال أفعالا فظيعة وبعضهم يحرمها تمام التحريم وكان المتقدمون لا يجدون فيها شيئاً من الحرام بل يعدون بعضها فضائل يفتخرون بها ولم تكن ضمائر الناس حينئذ تبكتهم عليها حتى قام من امتاز بقوة أدبه فأظهر للبشر عدم موافقتها لصالح الهيئة الاجتماعية فانجلى الافراد الحق وتركوا تلك السنن وهذا هو المراد من ارتقاء الآداب

ومما يدل على ارتقاء آداب الامم ائتلافها وامتزاجها وابرامها المعاهدات الادبية التي تؤول الى النفع العام فبعد ان كانت الآداب قاصرة على العشائر وكانت كل عشيرة تعد

التعدي على حقوق غيرها فضيلة عمت الآداب البلدان والممالك فصارت الأمم تعترف بحقوق بعضها على بعض وقلت الحروب مع أن المطامع زادت . والمزاحمة لاحراز قصب السبق في ميدان التمدن اشتدت والمشاكل تعددت وربما كان هذا أفضل نتائج الآداب . والهيئة الاجتماعية تعلم ان ارتقاءها الادبي هذا نتج اكثره من اجتهاد بعض أفرادها الذين امتازوا بقوة العقل والحس الادبي كما يمتاز غيرهم بقوة البنية ونحوها فلمثل هؤلاء الافاضل اكبر الفضل في تمدن الناس لانهم عمموا مبادئ الآداب وقربوها الى الذهن وغذوا النفوس بالفضائل فدخلت في ميدان العمل مدرعة بخير صفات العاملين واظهروا باجتهادهم فساد كثير من الاعتقادات القديمة وصلاح ماهو أنسب منها ولم تقتصر أتعابهم على تعميم الخير بين البشر بل شملت الحيوانات الدنيا أيضاً . ألا ترى ان كرام القوم تألفوا لجانا للنظر في أمر الحيوانات الداجنة وتخفيف آلامها كما تؤلف لجان لمساعدة الضعفاء وتخفيف مصاب المساكين من بني آدم . وهذا الشعور هو من أقوى مايبعث الانسان على عمل الفضائل والتمسك

بالآداب لاسيما وان نتائج أعمالنا لاترد وكل عمل نعمله لابد أن تدوم عواقبه ونتائجه ولا قوة في الكون تبطل نتائج الافعال ولذا كانت ذات اعتبار عظيم بالنظر الى علاقتها بمستقبل الزمان

(الثبات والصبر)

اعلم ان اكثر الاعمال العظيمة تمت بالوسائط البسيطة وباستخدام القوى الاعتيادية وفي سبيل الحياة العام فرص كثيرة الاختيار بل ان طرق الحياة المطروقة اكثر من غيرها تولي المجتهد قوة كافية ليسعى في اصلاح شأنه . والنجاح منوط بناصية الثبات والاقدام . فاكثر الناس ثباتا واقدما اكثرهم نجاحا . وكثيراً مالام الناس السعد وعدوه أعمى وما العمى الا هم . فانا اذا أمعنا النظر في أحوال اهل الاعمال رأينا ان السعد لا كثرهم اجتهادا بل ان أسمى مطالب البشر يمكن البلوغ اليها باستخدام القوى الاعتيادية ولا تزدى بها وأعظم الناس شأنا أقلهم اركانا الى القرائح واكثرهم مزاولة لاعمالهم . ومنهم من عرف القريحة بأنها ملكة قوية من الملكات الاعتيادية . وقال بعضهم انها قوة السعي والارتقاء في

سم النجاح أمر بطئ جداً والنتائج العظيمة لا يبلغها الانسان دفعة واحدة . فعلى كل واحد أن يقنع بالارتقاء المتدرج . قال بعضهم ان حكمة النجاح هو أن يعرف الانسان كيف يتوقع النجاح بالصبر . فالصبر هو حبس النفس على الاوامر والمكاره عن النواهي والمعاصي فهو زمام سائر الخصال وزعيم الغنم والظفر وملاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة قال تعالى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » وقال تعالى « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »

وينقسم الصبر الى أربعة اقسام . الاول الصبر على ما أمر الله سبحانه وتعالى به . والانتهاء عما نهى عنه . وبه يصح اداء الفرائض واستكمال السنن . الثاني الصبر على مافات ادراكه من مسرة . او نقضت اوقاته بمصيبة . فانه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة فان صبر طائعا استراح واحرز الثواب . وان لم يصبر حمل الهم والوزر . الثالث الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها . او يخشى حدوثه من رهبة يخافها . فبالصبر والتلطف يدفع عادية مايخاف . وينال نفع ما يرجو . وقد قيل في هذا المعنى

يا صاحب الهم ان الهم منفرج بشر بخير كأن قد فرج الله
اليأس يقطع احيانا بصاحبه لا تيأسن فان الصانع الله
اذا ابتليت فثق بالله وارض به ان الذي يكشف البلوى هو الله

وقال آخر

ثم للخطوب اذا احداثها طرقت والصبر فقد فازاقوام بما صبروا
فكل ضيق سيأتي بعده سعة وكل صبر وشيكا بعده ظفر

الرابع الصبر على ما نزل من مكروه او حل من أمر مخوف وبه تنفتح وجوه الآراء وتتوقى مكائد الاعداء . وهذا القسم اكثرهما وشبههما ان يكون صاحبه مضطرا . واعلم ان اللئام اصبر اجسادا والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح بان يكون جلد الرجل وقاحا (١) او رجله قوية على المشي او يده قوية على العمل فانما هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا وفي الضر متجملا ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطا وللحزم مؤثرا وللهوى تاركا وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفا وعلى مجاهدة الاهواء والشهوات مواظبا ولبصيرته بعزمه منفذا

---

(١) صلبا

فعلى الانسان ان يزرع قبل ان يحصد وكثير مايضطر ان يصطبر وقتاً طويلا قبل مايصل الى حصاده . وافضل الاثمار ابطأها نضجا قال الشاعر

من يجعل الصبر في مقاصده وفي مراقيه سلما سلما

وقال الآخر

لاستسهلن الصعب او ادرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

ولا يستطيع الانسان أن يتوج بلوغ امانيه بالصبر مالم يجتهد في بلوغها عن طيب نفس . والاجتهاد وطيب النفس تسعة أعشار الحكمة . وهما حياة النجاح وروحه . وما من لذة في الدنيا اتم من لذة العامل بعمله اذا كان عمله عن طيب نفس فقد قال بعضهم « صممت على أن احب هذا العمل وأوطن نفسي له فذلك خير من الترفع عليه والتذمر منه » وفي هذه الاحوال لا شيء أفضل من الرجاء ولا شيء يقوم مقامه فالرجاء أو الامل هو الذي يشجع الانسان ويقويه على اقتحام المصاعب قال بعضهم

أعلل النفس بالآمال ارقبها

ما أضيق العيش لولا فسحة الامل

وما ألطف ما قاله ابن الوردي في هذا المعنى

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

(الحب)

هو الصلة المتبادلة بين نفسين أساسها الثقة ودعامتها اجلال الجمال باقية ما بقي النفسان تربطهما معا من روابط الشبه الاتفاق في الاحساس وتقدير الوقائع والتأثر بالحوادث واعتبارات أخرى من شأنها ان تبلغ ثقة كل منهما بصاحبه الى حيث لا يبقى في نفسه ريب من جهته أو شك في نقاء نفسه وحسن اخلاصه : وكل ما سوى هذا فليس حبا يسوغه الاخلاص والثقة ولكنه شعور تهيجه المصلحة وتظهره الحوادث ان ذهبت بها الايام ذهب معها ذلك الشعور وحل محله سواه

وينقسم الحب الى خمسة اقسام الاول (الابوى) الثانى (البنوى) الثالث (الاخوى) الرابع (الوداى) الخامس (العشق) فالحب الابوى . هو حب الاباء لابنائهم ولا يوجد اصدق واثبت من هذا الحب فلا تغيره الايام ولا تعارضه الاعوام . فان شفقة الآباء على ابنائهم ونزولهم عند مايحبون

وارادة الخير والسعادة لهم باكثر مايرون لانفسهم واحتساب ذلك اعظم نعمة ينعم الله بها عليهم . أمر لااختيار للآباء فى انتزاعه من تلك القلوب التى تفيض حنانا على اولئك الابناء. فالاب يفيض السرور على جوانب قلبه اذا وجد من ابنه نزوعا الى المعالى ونية صادقة الى التحقق بالعلم والتبريز (١) فيه والتمكن من الاستفادة تمكنا يبوؤه اعلى منازل الشرف والسؤدد . وكالموت عنده ان يراد خامل الذكر هامد العزيمة سافل الهمة. والحب البنوى : فهو حب الابناء لآبائهم . وهذا الحب ينحط الى المرتبة الثانية انحطاط المعلول عن العلة فلا يبادل الابن والديه مساواة الحب على ان الابن لايشعر بمحبة والديه الا بعد محبتهما له مدة طويلة اعنى كل سن الفتوة والاغلبية للمتقدم وبينما يعقل الابن ويبتدئ ان يحب والديه يعود مشعرا بصعوبة تربيتهما له والتزامه بالطاعة لهما فان كان مطبوعا على حب الحرية يرى نفسه غير حاصل عليها فلا يمكنه ان يحبهما بمقدار حبهما له لمعارضتهما اياه فى سلوكه . وان كان نشأ على خوفهما فلا يجتمع حب الشئ والخوف منه معا فيكون اذا الحب الابوى

(١) الظهور

طبيعيا والبنوى ادبيا هذا اذا لم نقل ان الحب نتيجة المؤالفة والحب الاخوى : فهو الحب القائم بين الاخوة وهذا هو نتيجة المؤالفة محضا وقد ينقص ويزيد بمقدار هذه المؤالفة وقد يشتد فى البعض وينقص فى البعض وقد لا يوجد ابدا تبعا لآداب الاخوة وتربيتهم وما تعودوه من آبائهم

والحب الودادى : فهو الحب الذى يوجد بين الاقارب والاصحاب . وهو نتيجة المؤالفة ايضاً وهذا اما ان يكون مخلصا . واما ان يكون لغرض . فالمخلص نادر والغرضى كثير ومتواتر وربما انقلب الغرضى الى مخلص والمخلص الى غرضى تبعا لقرائن الاحوال ومواقع الاعمال

والحب العشق . فهو حركة تشمل القلب وتشغل الخاطر أما حصولها فيكون أولا على طريقة الوداد أو الميل البسيط ثم يرتقى الى درجة الحب وهو الميل الثابت الى المحبوب ثم تصعد اخيراً الى درجة العشق وهناك اذا أفرطت تدعى بالهوى أو الجوى أو الغرام وذلك حسب قوتها، فاذا نزل العشق فى قلب الشخص رحل صوابه وصارت كل افكاره تدور على هذا الاسم وهكذا فتعود كل تصرفاته منصرفة الى وجه

الحبيب بحيث لا يعود ساعيا الا فى سبيل مرضاته ولا يطلب الا شهوده فاذا تبدت بالغيبة تلاعبت به خمرة الاشواق وعبثت بقلبه نار الاتواق فيحن ويئن ويضيق صدره ويضطرب فكره ويأخذه القلق ويشمله الارق ويتصعد ويتنهد ويهيم الى الطرقات ويرصد الطاقات ولا يلذ له سوى ترداد ذكر الحبيب واللهج به فكلما كان ارسخ وصاحبه به اكلف فان موقع لذة الظفر منه ارسخ وسروره بذلك ابهج

والحب وان كان من الصفات التى تستعبد الاحرار وتسترق ذوى الاقدار وتورث الاحزان وتوقع فى الذل والهوان . الا انه ايضاً من الخصال الجميلة التى تطلق اللسان وتشجع الجنان وتصفي الاذهان وتولد الاخلاق الجميلة وحب الفضيلة فى الانسان: فكثيراً مارأينا فى الكتب التاريخية والروايات الغرامية ان الحب نهض بكثير من السوقة الى ذروة المجد والفخار وجلس بهم مجلس الرفعة والاقتدار بل كثيراً ماقرأنا ان المحب البائس رحل من بلاده طلبا للرزق وسعيا وراء الرفعة والمجد فاخذ يشق عباب البحار ويتحمل مشاق الاسفار وهو يستنهض فى كل حين همته ويستحث عزيمته فتنكشف له مكنونات الاسرار

وتتجلى امامه عجائب الاقدار وغرائب الآثار فيعود الى بلاده وقد خدمها بما رآه وبلغ فوق ذلك اقصى مناه ولا شك أن قول الشاعر

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناى لدموع لتجمدا

المقصود منه البعد طلباً للعلى والشرف . حتى يتقرب بذلك ممن يحبه ويهواه

﴿ الشرف ﴾

الشرف أفضل ما تتعلق به الآمال . لانه اسم جامع لانواع الكمال . فاذا أراد الانسان أن يكون من المستعصمين بعروته الراقين الى ذروته تعين عليه ان يحرص على المكارم وان يدأب فى اقتناء الفضائل بعزيمة امضى من الصارم حتى يفوز برضا الناس على اختلاف الانواع والاجناس فاذا كان من رجال العرفان بذل الجهد فيما يعود بالنفع العام على الخاص والعام فلا ينفك يسرح النواظر فى رياضه النواضر حتى يذلل عنان المآرب وينثر منظوم تاليفه في المشارق والمغارب فيكون أشبه شيء بمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة أو كسيف

يقوم من كل غير مقوم اعوجاجه . وان كان من ذوى المعاملات التجارية كان أحرص الناس في كل ناد على حسن المجاملة ورعاية حقوق العباد . صداقا لحديث (الدين المعامله) وبهذه المثابة يظهر ضمير شأنه ويمتاز على سائر أقرانه فتمهد امامه سبل الاكتساب ويرزقه الله من حيث لا يحتسب بغير حساب . واذا كان من الامراء العظام كانت مآثره غرة فى جبين الليالى والايام فتراه كعبة فضل يحج اليها كل من أراد فيعود ظافرا بالمراد . بل يكون قدوة لسواه فى الفضائل . واسوة فى محاسن الشمائل . وليست هذه الصفات التى أشرنا اليها وجعلنا المعول في شرف الانسان عليها الا وسائط لرفع مناره واحياء آثاره ولله در من قال

لسنا وان شرفت أوائلنا ... يوما على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت اوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا